المقدمة

الحمد لله الذي لم يحمّلنا ما لا طاقة لنا به، وقيَّض لنا من جميل عوْنِهِ دليلاً هاديًا إلى طاعتِهِ، ووهبَنا من توفيقه أدبًا صارفًا عن معاصيه، ولم يكلنا إلى ضعف عزائمنا، وحيرةِ آرائِنا، وسوءِ اختيارِنا، وقِلّةِ تمييزنا، وفساد أهوائِنا.

أمّا ما دفعني إلى دراسة هذا الموضوع، فهو إيماني بما يشكّله التّراث من أهميّة وقيمة بالنسبة إلى الأمّة التي تعمل على أن تبقى قويّة أمام الأمم، فمثل هذه الأمّة لا بدَّ لها في كل فترة من فترات الزمن أن تراجع حساباتها، وتعيد النظر في تراثها بين كل فترة وأخرى، لكي تعمل على تنقيته فتترك منه ما تترك، وتأخذ ما ينفعها من زاد تستطيع من خلاله أن تواجه الحاضر والمستقبل معًا، فالتراث، هو الرئة التي تتنفس الأمة من خلالها، وهو رصيدها الحضاري في سجل التاريخ، وأمةٌ بلا تراث، هي أمة متصدعة، لا جذور لها، ولا أصول؛ لهذا، فعملي هو محاولة للكشف عن أهمية التراث، ومدى قدرته على الفعل، وإثراء الحاضر والمستقبل في

مجالات المعرفة. من هذا المنطلق، فإنني أرى أنَّ تلك الرؤية التي تتكئ على التراث، وهي تنظر إلى النص الروائي لترصد أثر هذا التراث في روايات ديمة السمّان على مستوى الشكل والمضمون معًا للوقوف على مدى تأثير الماضي في الحاضر، وقدرة الحاضر على فهم الماضي من أجل بناء نفسه وبناء المستقبل.

وعندما بحثت في المكتبة العربية عن دراسات سابقة لروايات ديمة السمّان، لم أجد من درَسها، وهذا سبب يضاف إلى الأسباب الآتي ذكرها لدراسة التراث في رواياتها، والتي أُلخصُها بالآتي:

1- يلمس القارئ، في روايات الكاتبة المقدسية، ميلَها إلى محاورة التراث، ولا سيّما الشعبي منه، من أجل إحياء هذا التراث، وتأكيد وجوده، بوصفه ممثلاً لأحد الركائز الأساسية في ربط الفلسطيني بأرضه، وماضيه، وبهويته الإنسانية والوطنية، ويرسخ القواعد الثابتة أمام حركة الاجتثاث والتغريب، ومحاولات طمس الهوية الفلسطينية وإزالتها من الوجود.

2- تتنوع أنماط التراث التي تحاورها الكاتبة، لتشمل الآياتِ القرآنيةَ، والأحاديثَ النبويةَ، والمعتقداتِ الشعبيةَ،والأشعارَ العربية، والأمثالَ الشعبية الفلسطينية والعربية.

وقد استعنت بعدة مناهج نقدية، فأخذت منها ما يتناسب وحاجات البحث دون التعصب أو التحيز لمنهج معين، ولجأت للمنهج الوصفي، فوصفت شخصيات الروايات موضوع الدراسة، وعقّبت على تأثير التوظيف التراثي على وصف الشخصيات ورسم حركاتها، واستعنت بالمنهج النفسي الذي يهتم باللاشعور، وتأثيره في سلوك الإنسان، وأثره على الكاتبة في توظيف معلوماتها وخبراتها، وكيفية استخدامها لهذا التوظيف في سردها، كما استعنت بالمنهج التاريخي، في قراءة الأحداث التاريخية وتوظيفها في العمل الروائي، واستعنت بالمنهج الأسلوبي في تحليل بعض النصوص اللغوية ودلالاتها.

من المشاكل التي واجهتني أثناء إعداد هذه الدراسة، قلة الدراسات والأبحاثِ في هذا الموضوع، وعدمُ وجود مكتبات عامة تفي بالغرض، وافتقارها لبعض المراجع التي احتجت إليها، الأمر الذي تطلب مني السفرَ إلى الأردنّ، للحصول على ما احتجت إليه من مراجعَ ومصادرَ تُعينني على إتمام بحثي على أكمل وجه.

التمهيد

السيرة الذاتية للكاتبة[1]

ولدت ديمة السمّان في مدينة القدس سنة (1963)، ودرست في كلية شميدت، وأكملت تحصيلها العلمي في جامعة (بير زيت) بكالوريوس لغويات، حصلت على دبلوم عالٍ في إخراج أفلامٍ وثائقيةٍ قصيرة، وعملت محررةً في العديد من الصحف والمجلات المحلية منها: الأسبوع الجديد، ومع الناس، والصدى، ومرايا.

نُشر لها العديد من المقالات الأدبية والسياسية والتربوية، والنقدية، والقصص القصيرة، في عدد من الدوريات داخل فلسطين وخارجها، وعلى الصفحات الإلكترونية.

عملت مخرجة في هيئة الإذاعة والتلفزيون الفلسطينية، وشاركت بإخراج عدة أفلام قصيرة، تمَّ بثُّها في محطات التلفزة داخل وخارج

---

(1) ديمة السمان، السيرة الذاتية للكاتبة، وزارة التربية والتعليم، 22/ 11/ 2010، (مقابلة شخصية).

فلسطين. كذلك شغلت منصب مديرة دائرة الإعلام التربوي في وزارة التربية والتعليم العالي الفلسطينية بين الأعوام (1997-2005)، وتشغل حاليًّا منصب (رئيس وحدة شؤون القدس) في وزارة التربية والتعليم العالي، كما شغلت مناصب إداريةً في العديد من المؤسسات منها: اتّحاد الكتّاب الفلسطينيين، ومركز القدس للديمقراطية، وفي عدة مؤسسات ثقافية واجتماعية تختص بحقوق الإنسان، وهي عضوٌ في الهيئة العامة في رابطة الصحافيين العرب في فلسطين، كما شاركت في لجنة تقييم الأفلام في مهرجان المبدعين العرب (2004) عن فلسطين في جمهورية مصر العربية.

حصلت على جائزة أفضل رواية كتبت عن القدس العام (2008) في مهرجان "القدس زهرة المدائن" (اتحاد المثقفين المقدسيين)، وتمَّ تكريمها، أيضًا، من جامعة القدس، ومن ملتقى الأديبات المقدسيّات العام (2009).

الآثار الأدبية للكاتبة

1- الضلع المفقود، اتحاد الكتّاب الفلسطينيين، القدس، (1992).

2- القافلة، دار الهدى في كفر قرع/ المثلث، (1992).

3- الأصابع الخفية ، دار الكاتب، القدس، (1992).

4- جناح ضاقت به السماء، دار الإبداع للنشر، أم الفحم، (1995).

5- برج اللقلق، (جزءان)، الهيئة العامة المصرية للكتّاب، القاهرة، (2005).

مفهوم التراث

قبل الخوض في البحث عن توظيف التراث في روايات الكاتبة ديمة السمّان، أرى ضرورة تعريف مفهوم التراث في اللغة العربية كما ورد في لسان العرب، حتى نصل إلى المفهوم الحديث للكلمة لغةً ومصطلحًا.

أ- المفهوم اللغوي للتّراث:

جاءت كلمة تراث من الجذر اللغوي (ورث)، وقد قُلبت الواو تاءً، وتعني كلمة (تراث)؛ ما يتركه الإنسان بعد موته من ماديات ومعنويات،

واتسع معناها المجازي إلى الأشياء الأخرى مثل المطر والحزن والمرض.[2] وهذا ما يسميه الناس اليوم "الميراث".

ووردت كلمة (تراث) في الشعر العربي بمفهومها المعنوي والمادي: فقد فاخر عمرو بن كلثوم بقومه، وتباهى بأنه ورث المجد والشّرف عنهم، حين قال في معلقته:[3]

ورثنا المجد قد علمت مَعَدٌ نُطاعنُ دُونه حتى يبينا
وَرثتُ مهلهلاً والخيرَ منه زُهيراً نِعمَ ذُخرُ الذَّاخِرينا
وعَتَّاباً وكلثومًا جميعًا بهم نلنا تراث الأكرمينا
ورثناهُنَّ عن آباء صدقٍ ونورثها إذا متنا بنينا

ب- المفهوم الاصطلاحي:

التراث: "هو ما ترثه الأجيال اللاحقة عن الأجيال السابقة، في تاريخ قومٍ، أو شعبٍ، أو أُمة، من مأثور التقاليد والعادات، ومن منجزات العقل والإبداع، في حقول العلم، والفكر، والأدب، والفن، على

---

(2) ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ط3 (طبعة جديدة محققة)، بيروت: دار صادر، 2004، مادة ورث.

(3) الحسين بن الحسين الزوزني، شرح المعلقات السبع، بيروت: دار الكتاب العربي، 1425/ 2004، ص 119- 120.

اختلاف الموضوعات والأغراض والأنواع والاتجاهات، فهو ذاكرة الشعوب، تستحضره الثقافة السائدة، وتجسده أنماط الفكر والسلوك، وتختزنه مناخات البيئة، وتؤصله مناهج التربية".(*) وعليه، فإن التراث بمعناه العام؛ هو كل ما خلَّفه لنا السلف من أشياء مادية ومعنوية، انتقلت عبر الزمن من جيل إلى جيل.

أما التراث الذي يتعامل معه هذا البحث، فهو ذلك الجزء المعنوي من التراث، ويشمل على كلٍّ من التراث الديني، والتراث الأدبي، والتراث التاريخي، والتراث الشعبي أي (الإنساني)، وهذا التراث هو الذي يشكل ذاكرة الأمة ووعاءَها الحافظ.

(*) ميشال عاصي وزميله، المعجم المفصل في اللغة والأدب، ط1، بيروت: دار العلم للملايين، 1987، 1/ 371.